قصة

قصيرة

قدم اللورد

براء الخطيب

عندما حشر الريس مرسي نفسه ـ كان قد سلم جيد يومه من السمك الى التاجر (التعب ينضح ماء تحت الابطين) ـ داخل الاوتوبيس : كانت هناك نفس الاجساد التي يركب معها كل يوم من نفس المكان الذي تقع فيه حلقة السمك ، الى نفس المكان الذي يقع فيه بيته . الاجساد هي الاجساد . قد تتغير الرؤوس ـ لكن تبقى تلك الكتلة البشرية المحمولة على أربع عجلات تكاد تنفتق : تلك الكتلة التي لا تبدو عليها اية انفعالات عندما يعنفها السائق أو حتى ذلك (الكمساري) الذي غيرت النقابة اسمه الى (محصل) بعد اضراب عن العمل دام نصف يوم .

بسم الله ما شاء الله ـ الاوتوبيس ماركة مرسيدس وارد ايران أهداه الشاه الى صديقه حتى يسهل الحياة على كل هؤلاء الواغش ، كانت له ـ الاوتوبيس ـ ستائر على النوافذ وزجاج يلمع وبطول السقف كانت تلتصق ماسورة فضية تقبض عليها عشرات الايدي بالعروق الخضراء الناضرة حتى لا تتصادم أجزاؤها عند اي منحنى او حفرة او ماسورة مياه او مجاري انفجرت منذ شهور وتركها رجال البلدية الذين هم يأتمرون بامرة محافظ يأكل اللحم ـ كما يقولون ـ من أرداف زوجة رئيسة الاتحاد النسائي .

تلك سنة الله ـ الرجل الذي كان منذ ساعة يرمي الشبك في الماء المالح ويستخرج رزمة من بطن بحر لا يرحم ، عليه الان أن يجد لقدمه مكانا بين الاقدام واذا أكرمه الله واستطاع ان يضع احدى قدميه تحت كرسي يجلس عليه احدهم فانه سوف يكون مبسوطا وسوف يحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه والذي يمنح البعض مقعدا في الاوتوبيس ويضن على البعض بمكان لقدم واحدة تحت مقعد من المقاعد تحميها من قدم عمياء غاشمة تهرسها تحت كعب حذاء ترتديه (قد يكون حذاء جندي من معسكر المكس القريب) . ها ـ لقد وقع المحظور : شحنة الالم التي انبعثت من (كاللو) في الاصبع الملعون وانطلقت الى المخ مباشرة وكرجل كتم صرخته لكن قدمه الخرساء لا تنطق و (الكاللو) يلهب يافوخه والاصبع الصغير الملعون يشعل النار التي لا ترحم في الجسد ، حاول جذب قدمه لكن تلك الغاشمة، القدم الثقيلة الغاشمة كانت تحول بينه وبين تخليص اصبعه الذي كرمه الله بكاللو من نوع عين السمكة والذي هو كابرة او كمسمار الحديد المدقوق في عظام القدم . حاول مرة اخرى ومرة اخرى فشلت المحاولة ، نظر للرجل الذي يلتصق به (كان هذا ـ الذي يلتصق به ـ قد الصق نصفه الاسفل في نتوء مؤخرة الذي أمامه) فوجده يعاني من شهوة مؤلمة . وقد الصق نصفه الاسفل في النصف الاسفل لذلك الجسد الذي تعلوه رأس يغطي الشعر قفاها . حاول الريس مرسي ان يتأكد: دفعه الفضول ان يتأكد ان صاحب ذلك الشعر ليس احد

الخنافس وانه بالتأكيد سوف يكون امرأة ، لكنه لم يستطع ان يشبع فضوله . أخذ ـ رغم الالم في الاصبع الملعون ـ يراقب حركة الارداف مع حركة نصف الرجل الاسفل . أحس بقشعريرة تسري في جسده ، اشتد الالم عليه ـ همس بصوت خفيض للرجل الذي يلتصق به :

ـ « ليتك تحاول رفع قدمك عن قدمي قليلا .

الرجل الذي يكابد الشهوة المؤلمة ـ رد عليه :

ـ « قدمي بعيدة عن قدمك يا اخي » .

ـ « لا بد انها ـ اذن ـ قدم ذلك السمين الذي ينز منه العرق والذي يكاد يختنق » .

هذا ما قاله مرسي لنفسه . وضع يده على كتف السمين . جاهد السمين الزحام وعدم اتزان اللحم الذي يشكل جسده وادار رأسه الذي يكاد أن يكون ملتصقا بالكتفين دونما رقبة ـ وقال مرسي :

ـ « ليتك تحاول رفع قدمك عن قدمي قليلا » .

انطلقت الكلمات (ليتها لم تنطلق) من بين تلك الفتحة الرفيعة الصغيرة التي تسمى فمه :

ـ « هذا اوتوبيس ملك للدولة واوتوبيسات الدولة مزدحمة وان كانت اوتوبيسات الدولة ليست على مزاجك فيمكنك ان تركب تاكسي خصوصي » .

ومغالبا مزيج الالم والغضب ـ قال مرسي :

ـ « يا اخي قدمي تؤلمني » .

حدثت الطامة (ليت السمين أمسك عن الكلام لحظتها لما حدث ما قد حدث) . ألقى السمين في وجه مرسي ـ مع الرذاذ المتطاير من تلك الفتحة الرفيعة الصغيرة التي تسمى فمه بالرد الحاسم :

ـ « انها قدمك وليست قدم اللورد كرومر فلا تصدع أدمغتنا » .

لنفسه ـ قال مرسي : « اللورد من ؟ ثم أنه يهينك يا مرسي ، الرجل السمين الذي ليس له رقبة وفمه كثقب الابرة يهينك يا مرسي » .

في سقف الاوتوبيس ـ صرخ مرسي :

ـ « اللورد من ؟ ملعون ابو اللورد وابو الحكومة التي تحشونا مع امثالك من الاوباش » .

في هدوء يشبه بداية التحدي ـ رد السمين :

ـ « انها قدمك ، نعم ، فلا تصدع أدمغتنا التي كلفناها وعمرناها فلا تجيء انت او غيرك لتصدعها لنا » .

تلك اهانة يا مرسي ، وهذا المأفون يهينك ، بل انه يصر على اهانتك اذن ليكن ما يكون ـ صرخ :

ـ « أقسم ان امك عاهرة والا ما عرفت انت الرورد كرومر هذا » .

السمين رد :

ـ « أمي ؟ »

وبعد ذلك حاول ان يشهد كل ركاب الاوتوبيس على أنه اهين :

ـ « يقول أمي ، هل قلت امي ؟ أقسم بالمرسي ابي العباس انني سوف أيتم اولادك في هذا النهار الذي لن يكون لليله قمر ، أمي انا يا ابن المفضوحة » .

حاول مرسي ان يقبض على عنق السمين ، حال بينهما ذلك الرجل الذي كان يكابد الشهوة المؤلمة والذي أفلتت منه المؤخرة التي لا يتوفر له مثلها كل يوم .

دفع مرسي ذلك الذي ـ كان ـ يكابد الشهوة المؤلمة صارخا فيه :

ـ « ابعد عن طريقي انت ايضا حتى اقبض على رقبة هذا الخنزير » .

صرخ السمين :

ـ « خنزير ؟ تقول خنزير ؟ انه يقول خنزير يا رجال ، هل انا خنزير ؟»

ضاعت الشهوة ولم يتبق الا الالم وصياح الكتلة البشرية كما ان المؤخرة تاهت في الزحام ، اذن :

ـ « يا أخي الرجل ليس خنزيرا كما انك انت ايضا رجل طيب ، كلنا اولاد بلد وكلنا طيبون ، كما ان السائق ابن حلال والمحصل ايضا ، كلنا اهل ولا يجب أن نغضب من بعضنا » .

هذا ما قاله الرجل الذي كان يكابد الشهوة المؤلمة منذ قليل ..

مرسي قال :

ـ « يقول انها قدمي وليست قدم الروردكرومر» .

والسمين قال :

ـ « وماذا في هذا ؟ هه ؟ ثم ان اسمه (اللورد) وليس (الرورد)» .

مرسي قال :

ـ « ها هو قد عاد لاهانتي وأقسم بالاباصيري وسيدي ابي العباس وكل اولياء الله لاشق كرشه » .

صرخ المحصل :

ـ « المنشية يا غجر ، وصلنا المنشية يا غجر » .

توقف الاوتوبيس فجأة وفجأة اهتزت كتلة اللحم البشري عندما وضع الولد شحتة السائق قدمه على الفرامل .

* * *

على الرصيف في ذلك النهار ـ الذي تشغله بعض كراسي مقهى (الحرية) جلس الثلاثة : الذي كان يكابد الشهوة المؤلمة والسمين ومرسي . جاء (الجارسون) بسترته البيضاء المغسولة بمسحوق تنظيف الملابس الذي رسمت على علبته الورقية امرأة تسبح في بحر ملون بالاحمر والازرق والاصفر وتشير لقرص الشمس الاصفر فتبتسم الشمس المستديرة الصفراء وهي مغمضة العينين ـ قال السمين :

ـ « اعطني قهوة » .

وقال مرسي :

ـ « وانا ايضا . واشار الى ثالثهم الذي قال :

ـ « قهوة مخلوطة بالحبهان ، اعطني فنجان قهوة مخلوطا بالحبهان ولا تنسى أن يكون السكر خفيفا ، هه؟ انه مقهى المحامين فهم ـ المحامون ـ الذين يجلسون في مقهى الحرية اما في مقهى (بطاطا) فيجلس المدرسون الذين هم على المعاش ، نعم أعطني قهوة مخلوطة بالحبهان ولا تنس ان يكون السكر خفيفا » .

بعد أن انصرف (الجارسون) لاحضار القهوة قال السمين :

ـ « لا تؤاخذني يا أخي ، لقد أصلحت سوء التفاهم الذي كان بيني وبين الريس مرسي وهدأت سرنا لكن ـ ولا تؤاخذني ـ لا اعرف اسمك ، نعم حتى الان لا أعرف اسمك أنت الرجل الطيب » .

الرجل الذي كان يكابد الشهوة المؤلمة ـ قال :

ـ « انا المعلم غروز ، المعلم غروز احسن من يحيك الجلابية البلدي ، لا احيك البيجاما بل الجلابية الاسكندرانية : لباس ابي وابيك ولباس جدي وجدك ، رحم الله جميع موتانا » .

أحضر (الجارسون) ثلاثة فناجين من القهوة المخلوطة بالحبهان ، أخرج مرسي من جيبه سيجارتين وقال :

ـ « لا تؤاخذني ، ليس معي الا سيجارتان ومع ان هذه المناسبة من أحسن مناسبات عمري فلا يمر على الرجل منا مناسبة مثل هذه كل يوم ، لقد تخاصمت انا والمعلم فتحي واصلحت بيننا انت ومع ذلك تدعونا الى هذه الجلسة وتطلب لنا المشروبات وهئذا لا اجد سيجارة ثالثة اقدمها لك » .

قال عزوز :

ـ « لا عليك سوف اطلب لنفسي شيشة » .

وزعق :

ـ « شيشة حموي يا جارسون ، احضر شيشة حموي ولا بد ان يكون الدخان نديا ».

أشعل ـ السمين ـ فتحي السيجارة للريس مرسي واشعل مرسي السيجارة للمعلم فتحي وأحضر (الجارسون) الشيشة الحموي بالدخان الناري لعزوز وشرب الجميع الدخان مع القهوة المخلوطة بالحبهان . بصق زعرور ريقه الجاف مختلطا بمرارة الدخان ومرارة الحبهان ـ وزعق :

ـ « نار يا جارسون ، أحضر نارا يا جارسون لهذه المدعوقة ، كما لا بد وان تحضر لنا ثلاثة اكواب من القرفة المخلوطة بالبندق » .

قال مرسي :

ـ « هذا كرم منك : طلبت لنا قهوة وقرفة مخلوطة بالبندق ولم أجد ـ انا ـ معي سيجارة لاقدمها لك » .

رد عزوز :

ـ « لا عليك يا اخي . انها قرفة مخلوطة بالبندق وانا اعرف ان المحامين الذين يجلسون هنا يشربون مشروبات ساخنة تسلك لهم حناجرهم حيث يصرخون في المحاكم ليطلبوا البراءة للمتهمين حتى لو كانوا تجار مخدرات ، ماذا في الامر ؟ هه ؟ انها أشياء بسيطة. ثلاثة فناجين قهوة وثلاثة أكواب من القرفة المخلوطة بالبندق والتي تسلك الزور » .

قال فتحي السمين :

ـ « تصور يا ريس مرسي، هذا الرجل الامير ، الذي أصلح سوء التفاهم بيننا كنت أشك ـ انا ـ فيه ونحن في الاوتوبيس . تصور؟ هذا الرجل ، انه آية في الكرم ولقد كنت اشك فيه ولم أكن ألتمس له العذر يا أخي لزحمة المواصلات ربما وربما للاجهاد ، لقد قلت ـ لنفسي ـ انه يتعمد أن يقف خلف مؤخرة المرأة » .

قاطعه عزوز :

ـ « لقد ظلمتني يا اخي ، والله لقد ظلمتني ، ثم انه كان شابا من شباب هذه الايام السوداء . كل أيامنا أصبحت أياما سوداء ، عرفنا الايام السوداء والصفراء والزرقاء وتلك التي بلون النيلة ، لم تكن امامي أية امرأة يا أخي ، بل كان شاب .نعم،شاب يرتدي البنطالون المحزق ويطيل شعره حتى يغطي قفاه ومع ذلك سوف أكون ـ معك ـ صريحا : لقد كدت أفعلها ، كدت أصل، نعم قبل ان تتعاركا كدت أصل ، كدت افعلها على نفسي، لم اكن اقصد بالطبع ، لعن الله الازدحام فلقد كدت أفعلها على نفسي » .

ومشيرا الى الجارسون ـ زعق زعرور :

ـ « ثلاثة شاي بالحليب ، منهم واحد يزيد سكره » .

قال مرسي :

ـ « والله لقد أخجلتنا : أصلحت ما كان بيننا من سوء التفاهم وطلبت لنا القهوة ولنفسك شيشة لانه لم يكن معي سيجارة اقدمها لك وطلبت لنا قرفة لا يشربها الا المحامون وها أنت تطلب لنا شايا بالحليب ؛ بالله يا رجل لقد اخجلتنا » .

رد عزوز :

ـ « هذا بعض ما عندكم ، نحن فقراء يا أخي وانا لم أصنع لكما اي معروف ،نحن كلنا اخوة ، اخوة وفقراء والاوتوبيسات مزدحمة في هذه الايام التي تشبه قرون الخروب ، لقد قال المعلم فتحي ان قدمك ليست قدم اللورد كرومر مع ان قدم هذا اللورد ليست أحسن من قدمك التي قلت انت ان باصبعها الصغير (كاللو) من نوع عين السمكة ، لكن بالله عليك يا رجل لا تهيج مواجعنا ودعنا ننسى خلافاتنا ونشرب الشاي بالحليب».

السمين ـ فتحي ـ قال :

ـ « انها القيامة يا أخي ، كنت ارى ـ بأم عيني ـ

ازدحام الاوتوبيس الذي تحشرنا فيه الحكومة كالبهائم التي يحملونها للسلخانة ويركبون هم السيارات تشبه الباخرة وبطول باخرة والسيارات التي تشبه بطن الحامل في حجم باخرة ومع ذلك يحشرونا في تلك الاوتوبيسات اللعينة فيحدث بيننا سوء التفاهم ولولا طيبة المعلم عزوز ، ذلك الرجل الطيب الذي يحيك الجلابية ولايحيك البيجاما ، وبغبائي أسأت أنا ـ بائع العصير ـ الظن به فقد كاد يفعلها على نفسه فالازدحام يجعل الرجل منا لا يعرف كيف يضبط شعوره » .

قال عزوز :

ـ « يا اخي ، انتما الاحسن مني ، ما انا ـ الجالس معكما ـ الا رجل يحب الخير بعد ان قل في بلدنا عمل الخير ، ويحزن للخلافات بين الناس الطيبين مثلكما ، فلننس خلافاتنا فالحكومة لا تريد منا الا هذا الاختلاف حتى يمكن ان تحكمنا ، نعم لننس خلافاتنا » .

والتفت الى مرسي وقال :

ـ « حقا ليست هناك محبة الا بعد عداوة لكن أليس هناك ـ هنا ـ في مقهى المحامين مكان تبول فيه؟»

زعق مرسي :

ـ « يا جارسون : دل هذا الرجل الطيب على مكان يبول فيه » .

أشار الجرسون باصبعه داخل المقهى ـ قائلا :

ـ « هناك ، انه هناك ، المرحاض بجانب ذلك الباب ، في مواجهتك تماما ، بجانب الباب الخلفي للمقهى » .

قام عزوز الى داخل المقهى حتى يبول ـ وقال الريس مرسي :

ـ « لقد ظلمت الرجل يا معلم فتحي ، هذا الرجل الطيب الذي أصلح ما بيننا بعد ان كدنا نضرب بعضنا ، لكن وصدقني ـ يا معلم فتحي ـ فانا لا أعرف لماذا يقول ان الحكومة تريد منا ان نختلف؟ نعم انا لا اعرف لماذا تريد منا الحكومة ذلك ؟» .

قال فتحي :

ـ « لقد أسأت اليه انت وأسأت اليه انا وعلى اية حال ليست هناك محبة الا بعد عداوة ، انظر لقد كدنا ان نضرب بعضنا ، أنا وانت كدنا نتعارك من اجل كلمة تافهة قلتها لك في حالة ضيق » .

فجأة ـ انتفض الريس مرسي واقفا . تأمل فتحي السمين ـ بائع العصير ـ الموقف : لقد غاب المعلم عزوز الخياط ولم يعد حتى الان ، فهل يكون قد زاغ ؟ قال فتحي :

ـ « اجلس يا ريس مرسي سوف يعود الرجل ، انه ليس قليل الاصل ، لقد دعانا على هذه المشروبات وسوف يدفع ثمنها بالطبع » .

وعندما رأى (الجارسون) الريس مرسي واقفا اقترب منه قائلا :

ـ « ما زالت الساعة الخامسة وما زال هناك متسع من الوقت ، اجلس يا رجل فالمقهى تحت امرك ، انه ليس مقهى المحامين فقط ، نحن اولاد بلد ومن لاولاد البلد الا اولاد البلد ، انه مقهاكم جميعا ، لقد دعاكم المعلم الذي كان يجلس معكما على شرب كوبين من الحلبة ، لقد أمرني ان احضر لكما كوبين من الحلبة قبل ان يذهب الى جامع المرسي هو قال لي انه سوف يذهب الى جامع سيدي المرسي ابي العباس حتى يلحق صلاة المغرب » .

ـ « اذن فقد فعلها النصاب ، فعلها ابن الكلب اذن ، أنا لا املك ثمن ما شربنا من مشروبات بالاضافة الى الشيشة بالدخان الناري الذي طفحه » .

هذا ما قاله ـ لنفسه ـ الريس مرسي وهو يتهالك فوق المقعد .

ذهب (الجارسون) بعد ان ناداه احد الزبائن :

ـ « هذا مقلب لا اتحمله ، انا ابو سبعة اولاد ، سبعة افواه مفتوحة كبلاعات تلتهم عشرين رغيفا في الوجبة الواحدة ، انا لا املك ثمن هذه المشروبات ، ما انا الا بائع عصير سريح على عربة يد عرجاء ، نعم انا لا املك ثمنها وسوف تكون فضيحة لها اجراس » .

وهذا ما قاله ـ لنفسه ـ المعلم فتحي بائع العصير السريح .

يا منجي من المهالك ـ أصبح موقفهما حرجا للغاية : الجارسون اللعين ينظر اليهما من آن الى آخر ، انتهى كل كلام بينهما ، وها هي الساعة ـ داخل المقهى ـ على الحائط تشير للسابعة والبحر يضرب سور الكورنيش بأمواجه فيتطاير الرذاذ .

فجأة ـ انتفض مرسي واقفا :

ـ « انها قدمي وليست قدم ذلك اللورد » .

دهش فتحي ، ارتعش قلبه فأسرع دم الغضب في العروق ، اذن فمرسي هذا يريد ان يتعارك ، فلتكن معركة تنهي هذا الموقف الحرج ، نعم لتكن معركة ولن يسمح لاي ابن كلب ان يصلح بينهما :

ـ « تقول انها قدمك وليست قدم اللورد كرومر ؟ فليكن ، لكنك قلت عن امي عاهرة ، أنا لم أنس اهانتك ، أمي ليست عاهرة ، العاهرة هي امك التي لا يعرف احد لها زوجا او لك أبا » .

هب كل رواد المقهى في محاولة للهرب من المقاعد التي راح يطوحها كل منهما في الهواء باتجاه الاخر وراح بعض الرواد يهدئون الموقف دون ان يعرفوا شيئا مما حدث وازداد الصراخ وتحول مقهى (الحرية) الى حلبة للفوضى .

اسكندرية ـ براء الخطيب